هذا الرجل الليث، عاش مثل الليث صولة وجولة وصوتاً مرعباً ومات مثله ميتة حرة نبيلة، ولكنه شبيه مختلف ـ على عادة النص وعلى مبدئه الابداعي... فالليث يموت على يد رجل كريم، أما المتنبي فيموت على يد قاطع طريق متربص، غرضه السرقة من جهة والانتقام من جهة أخرى[12].

هذا اختلاف يميز المتنبي ولكنه لا يلغي أسطورية النص، حيث نرى أن الشاعر قد كتب لحظة موته، ووصفها وعللها، وكأنه قد فصل ثوباً فلبسه.

هذا موت حتمي وهو قدر مكتوب، كتبه المتنبي بيده ونطقه بكلماته، ثم مثله تمثيلاً وطبقه تطبيقاً. ومثلما مات الليث مات الشاعر، ومثلما تكبر الشاعر على الثرى كحال الأسد فإنه قد تعفر بالتراب. ومات ليثاً هزبراً مثلما عاش ليثاً هزبراً. وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا. لقد أعطى المتنبي اللغة حقها من المجد والسلطان فأعطته حقه من العزة وعلوّ الشأن. ومثلما أخلص لها أخلصت له. وكان حقاً شاعراً يشبه الشعراء فيقف في صفوفهم، ويختلف عنهم فلا يجرؤون على الاقتراب من عرشه، ويظل زئيره يغطي كل أرض تغطيها اللغة العربية عابرة لحدود الفرات ولحدود النيل.

لقد تجنب الطريق السالكة، وسلك غيرها، فأبدع وبقي حياً في شعره وصوته. وغلط مرة فسلك الطريق المعروفة فقابله فاتك

(12) قتله فاتك الأسدي ثأراً لهجاء المتنبي لابن أخته وبقصد السرقة. انظر الصفة عند الثعالبي، المرجع السابق، ص 240، وديوان المتنبي 79/1.